

الإحسان إلى الخلق

أسعد أعظمى بن محمد أنصاري

الأستاذ بالجامعة السلفية، بنارس

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

إن الإحسان إلى الخلق من أهم ما يقرب العبد إلى الله تعالى، فإن الله أوجب على العبد حقوقاً تجاه ربه وحقوقاً تجاه بني جنسه، ولكل منهما منزلة ومكانة، والقيام بأحدهما لا يغنى عن القيام بالآخر. قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: الإحسان نوعان: إحسان في عبادة الخالق وإحسان في حقوق الخلق، وأصل الإحسان الواجب: أن تقوم بحقوقهم الواجبة كالقيام ببر الوالدين وصلة الأرحام، والإنصاف في جميع المعاملات بإعطاء جميع ما عليك من الحقوق، كما أنك تأخذ مالك وافياً. (بهجة قلوب الأبرار، ص: ١٥٧)

ومما يؤسف له أن بعض الطيبين يغفلون عن الحقوق الواجبة تجاه الخلق، ويبذلون جل جهدهم في تأدية حقوق الخالق، مع أن الإسلام قد أكد على هذا وذاك، وحرص على كلا النوعين من العمل. والمسلمون في تاريخهم الطويل اهتموا بالجانب الثاني إلى جانب اهتمامهم بالجانب الأول، وبذلك لفتوا أنظار الأمم الأخرى إلى محاسن الإسلام، ورغبتهم في الدخول في الدين الحنيف.

والقرآن الكريم قد أكد في كثير من آياته على الإحسان إلى الخلق بل قرنه مع التوحيد، فقال جل وعلا:

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى﴾

والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم، إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا - النساء: ٣١ ﴿٣١﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على ذكر أصناف من الناس وأكدت على القيام بحقوقهم والاحسان إليهم بدءا بالوالدين ومرورا بالجيران والقربات ومن ذكر معهم وانتهاء بالماليك والخدم، ثم وصفت المعرضين عن أداء حقوق هؤلاء بالاختيال والفخر وعدم محبة الله لهم، وهذا فيه نوع تهديد لأمثال هؤلاء.

وقال جل وعلا فى آية أخرى:

﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون - النحل: ٩٠﴾.

وقال: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان - المائدة: ٢﴾. وحينما نرجع إلى السنة الشريفة والسيرة النبوية العطرة نجد أن النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم اتصف بهذا الخلق العظيم فى حياته الشخصية وحث أمته على الاتصاف به والتخلق بهذا الخلق الكريم وأكد على الالتزام به وبشر القائمين بهذا العمل الإنسانى بالأجر الجزيل فى الدنيا والآخرة معا.

فمن السيرة النبوية الطيبة

نجد أنه لما نزل عليه الوحي أول ما نزل فى غار حراء رجع رسول الله ﷺ إلى بيته عند زوجه خديجة رضي الله عنها وذكر لها ما حدث، وقال: لقد خشيت على نفسى، فقالت خديجة بكامل الثقة وغاية الإيمان:

”كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق ..“ (صحيح البخارى)

فنرى فى هذه الصفات التى استدل بها السيدة خديجة على أن النبى ﷺ لا يخزيه

الله لسبب اتصافه بها، نرى في هذه الصفات أنها كلها تتعلق بهذا الجانب الذي نحن بصدده.
وعن الأسود بن يزيد قال: سئلت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله - يعني: خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة. (صحيح البخاري ومسند أحمد)

وعن أنس رضي الله عنه قال: إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ فتنتطق به حيث شاءت. (رواه البخاري تعليقا، وأخرجه أحمد موصولا)
وعن ابن أبي أوفى قال: كان النبي ﷺ يكثّر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، وكان لا يأنف، ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضي له حاجته. (رواه النسائي، صحيح الجامع: ٥٠٠٥)
وعن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير، فيزجي الضعيف - أن يسوقه ويعينه - ويردف ويدعو له. (رواه أبوداود بإسناد صحيح، صحيح الجامع: ٤٩٠١)

ومن السنة النبوية القولية

قوله ﷺ: "خير الناس أنفعهم للناس". (صحيح الجامع: ٣٢٨٩)
وعن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أي الأعمال أفضل؟ قال: "الايمان بالله، والجهاد في سبيله، قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال: أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنًا، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: "تعين صانعا أو تصنع لأخرق" قلت: يا رسول الله! أريت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك". (متفق عليه)

وقال الإمام النووي في رياض الصالحين:

"الصانع" بالصاد المهملة، هذا هو المشهور، وروي "ضائعا" بالمعجمة، أي ذا ضياع من

فقر أو عيال، ونحو ذلك، و "الأخرق" الذي لا يتقن ما يحاول فعله. (رياض الصالحين، حديث رقم: ١١٧)

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:

"كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل فى دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة". (متفق عليه)

ورواه مسلم أيضا من رواية عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

"إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاث مائة مفصل، فمن كبر الله، وحمد الله، وهلل الله، وسبح الله، واستغفر الله، وعزل حجرا عن طريق الناس أو شوكة أو عظما عن طريق الناس، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، عدد الستين والثلاث مائة، فإنه يمسي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار".

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

اعلم أن الإحسان المأمور به نوعان:

أحدهما: واجب، وهو الانصاف والقيام بما يجب عليك للخلق بحسب ما توجه عليك من الحقوق.

والثاني: إحسان مستحب، وهو ما زاد على ذلك من بذل نفع بدني، أو مالي، أو علمي، أو توجيه لخير ديني، أو مصلحة دنيوية، فكل معروف صدقة، وكل ما أدخل السرور على الخلق صدقة وإحسان، وكل ما أزال عنهم ما يكرهون، ودفع عنهم ما لا يرتضون من قليل أو كثير، فهو صدقة وإحسان.

واستمر الشيخ السعدي قائلا: فالإحسان هو بذل جميع المنافع من أي نوع كان، لأي مخلوق يكون، ولكنه يتفاوت بتفاوت المحسن إليهم، وحقهم ومقامهم، وبحسب الإحسان،

وعظم موقعه، وعظيم نفعه، وبحسب إيمان المحسن وإخلاصه، والسبب الداعي إلى ذلك.
(بهجة قلوب الأبرار: ١٢٨)

وعن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: بينما نحن فى سفر إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل بصره يميناً وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ:
”من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له“ فذكر من أصناف المال ما ذكره، حتى رأينا: أنه لاحظ لأحد منا فى فضل. (رواه مسلم)

أجر المحسنين

قد ثبت مما سبق من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أن الإحسان إلى الخلق من أعظم القربات إلى الله، والمسلم مأمور بذلك، وقد وعد الشارع على هذا العمل المبارك بالأجر الجزيل، والثواب الكبير، قال الله عز وجل:

﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان - الرحمن: ٦٠﴾

وقال أيضاً:

﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - يونس: ٢٦﴾

وقال:

﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين - التوبة: ١٢٠﴾

وقال:

﴿وافعلوا الخير لعلكم تفلحون - الحج: ٧٧﴾

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

”المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة“ - (متفق عليه)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ:

”الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله“ وأحسبه قال:

”وكالقائم الذي لا يفتر، وكالصائم لا يفطر“. (متفق عليه)

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

”..... فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة“. (متفق عليه)

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: وفي هذا الحديث أن من أعظم المنجيات من النار الإحسان إلى الخلق بالمال والأقوال، وأن العبد لا ينبغي له أن يحتقر من المعروف ولو شيئاً قليلاً، والكلمة الطيبة تشمل النصيحة للخلق بتعليمهم ما يجهلون، وإرشادهم إلى مصالحهم الدينية والدنيوية. وتشمل الكلام المسر للقلوب، الشارح للصدور، المقارن للبشاشة والبشر، وتشمل الذكر لله والثناء عليه، وذكر أحكامه وشرائعه. اهـ (بهجة قلوب الأبرار: ١٦٣)

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:

”أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا“ وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما. (رواه

البخاري)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

”بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه، حتى رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له“ قالوا: يا رسول الله إن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: ”في كل كبد رطبة أجر“. (متفق عليه)

وفي رواية للبخاري: ”فشكر الله له فغفر له فأدخله الجنة“.

وفي رواية لهما: ”بينما كلب يطيف بركية قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها فاستقت له به، فسقته فغفر لها به“ (قال الإمام النووي: ”الموق“:

الخف، و"يطيف": يدور حول "ركية" وهي البئر، رياض الصالحين، حديث رقم: ١٢٦)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضا عن النبي ﷺ قال:

"لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين". (رواه مسلم)

وفي رواية: "مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة".

وفي رواية لهما: "بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخره فشكر الله له فغفر له". (رياض الصالحين: ١٢٧)

فهذه البشارات هي الأخرى تحت الإنسان على بذل جهده ووقته لنفع الآخرين وإيصال الخير إليهم ودفع الضر عنهم، فلا ينبغي للعبد أن يحرم نفسه من هذه الأجور العظيمة.

ونرى في هذا الوقت أن أتباع الديانات الأخرى قد نشطوا في هذا الميدان وانتشروا هنا وهناك فأقاموا المستشفيات العامة والمنظمات الخيرية وقدموا معونات بأنواع مختلفة، وبذلك تأثر بهم المتأثرون. والعمل الخيري موجود بحمد الله لدى المسلمين على مستوى الأفراد والمنظمات والحكومات، ولكنه في حاجة إلى مزيد من العناية وإلى مشاركة أكثر فعالة في هموم البائسين والمضطرين. والحاجة ماسة إلى توعية جماهير المسلمين وكذلك إلى توعية الدارسين في مدارسنا الإسلامية بهذا العمل الإنساني العظيم، وبأهميته وفوائده في الدين والدنيا والآخرة.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا.

وصلى الله وسلم على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

